صفحة بيضاء
في تاريخ الحجر الأسود

بقلم: الأستاذ محمد الطيب النجار

- الحجر الأسود لم ينزل من الجنة ، وإنما هو من أحجار جبل أبي قبيس .
- أراد الله أن يوضع الحجر الأسود في ركن من أركان بيته المحرم ليكون علامة يبدأ منها الطواف وينتهي اليها .
- ليس تسلمه وتقبيله شرطا فى صحة الطواف ولا فى صحة الحج والعمرة ...

يتجه المسلمون إلى البيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا كلما أذن الإيمان فى نفوسهم بالحج أو العمرة أو الطواف ، فتسبقهم قلوبهم إلى هذه البنية السوداء التى رفع قواعدها إبراهيم وإسماعيل . وإلى هذا الحجر الأسود الذى وضعه إبراهيم فى ركن البيت ، ثم تركه وديعة غالية حفظتها الأجيال والقرون ، حتى أن الإسلام الذى غير وبدل وهدم وأقام لم يتعرض لهذا الحجر بنقض أو هدم أو تغيير ، بل بقى فى مكانه وبقى له قدره ومكانه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليه ويقبله وكان المسلمون من وراء نبيهم يفعلون مثل ذلك . وهم جميعا يؤمنون بأنه حجر لا ينفع ولا يضر . وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلمته المأثورة « والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » (١) .

وفى هذه الصفحة التى نقدمها حول هذا الموضوع ـ التى نرجو أن تكون بيضاء نقية من الشوائب ـ سنتتبع هذا الحجر ، منذ وضع فى بيت الله الحرام ونناقش ما ورد فى شأنه من آثار ، وما قيل عن حكمة تقبيله أو استلامه ، وما تعرض له من أحداث كادت تذهب به حتى نتنهى إلى هذا العصر الذى نعيش فيـــه :

(١) ذكرت هذه الرواية فى صحيحي البخارى ومسلم .

لقد وردت آثار كثيرة فى فضل هذا الحجر ، وفيها ما يدل على أنه من الجنة ، ولا بد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة الفاحص المتأمل ، الذى يلتزم الحيدة التامة ولا ينخدع بالعاطفة ، التى كثيراً ما تحجب الحق وتطمس معالمه .

فلقد روى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إن الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ، ولولا أن طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب[1] وفى رواية أخرى « لأضاءا ما بين المشرق والمغرب ولأبرآ من استلهما من الخرس والجذام والبرص » .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم » .

ويذكر العلامة تقى الدين الفاسى رواية أخرى عن ابن عباس ، تتعارض والرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه . إذ يقول : «وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة وإنه لياقوتة بيضاء » [2] .

وهذه الروايات وأمثالها تحمل فى طياتها ما يوهنها ، اذ يتعارض بعضها وبعضا . ثم هى فى ذاتها لا تقوم على أساس ، ولا تستهدف غرضا سليما .

فأما تعارضها ؛ فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس ، تفيد إحداهما أن الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ، ثم اسود بذنوب بنى آدم وخطاياهم ، وأما الثانية فإنها تفيد أنه قد اسود قبل أن يطوف به أحد ، ومعنى ذلك أن الذنوب والخطايا لم تغير بياضه إلى سواد ، وإنما أراد الله ذلك حتى لا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة ، حينما يرون الحجر وهو ياقوتة بيضاء . .

وأما أنها لا تقوم على أساس ، ولا تستهدف غرضا سليما ، فلأن قيمة هذا الحجر لا تزداد إذا كان من أحجار الجنة ولا تنتقص إذا كان من أحجار الأرض ، ذلك بأن قيمة الشيء إنما تكون فى الجوهر لا فى العرض ، وفى اللباب دون القشور . فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب . والحصى بين اللآلئ الغالية هو الحصى بين الرمال السافية . والكعبة المشرفة قد بنيت

(١) ذكره الترمذى فى صحيحه وقال حديث غريب .
(٢) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، لتقى الدين الفاسى ، ج ١ ص ١٦٨ ط الحلبى .

من أحجار الأرض ، ومع ذلك فهى بيت الله الذى يشع بالهدى والنور ، ويسمو على ما فى الجنة من بيوت وقصور . .

ثم ما هى الحكمة فى أن ينزل الله من الجنة يا قوتتين مضيئتين ثم يطمس نورهما ؟ إنهما إذن يفقدان خاصيتهما الكريمة ، وينزلان إلى مستوى الحصى والتراب . أو ما كان الأجدر أن يظلا ياقوتتين مضيئتين ليكونا آية الله الخالدة على الزمن ، والمنارة الهادية التى تجلو غواشى الشك وتبدد ظلمات الحيرة ؟ ثم ما هى العلاقة بين الياقوت المضىء والإبراء من الخرس والجذام والبرص ؟ وإذا قيل إن هذا الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم سودته خطايا الناس وذنوبهم ، فلماذا لم يره أحــــد من الناس فى زمن بياضه ؟ ولماذا لا يزداد اسوداداً على توالى الأزمنة والعصور ؟

كل هذه الخواطر التى تجول فى النفس تجعلنا ننظر إلى مثل هذه الروايات فى حيطة وحذر ، ونشك فى نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما أنه لم يذكر شىء منها فى الصحيحين. وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله بن عمرو قال : إنه حديث غريب... ولا بد لنا إذن أن نتلمس السبيل إلى رواية أخرى لا يتطرق إليها مثل هذا الضعف والوهن .

ولقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه أن ابراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام ، قال لولده اسماعيل إن الله أمرنى أن أبنى له بيتا ، قال إسماعيل فأطع ربك ، فقال إبراهيم : وقد أمرك الله أن تعيننى على بنائه ، قال : إذن أفعل ، فقام معه فجعــــل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ثم قال إبراهيم لإسماعيل : إئتنى بحجر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علما . فأخذ حجراً من جبل أبى قبيس، وقيل إن جبريل أخبره بحجر هو الحجر الأسود ، فأخذه ووضعه فى موضعه . فلما ارتفع البنيان كان إبراهيم يقف على حجر وإسماعيل يناوله . وهذا الحجر هو مقام إبراهيم ، وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه (١)

ومن هذه الرواية الهادئة وما يؤيدها من روايات ذكرتها أمهات الكتب التاريخية يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة ، وإنما هو من أحجار

(١) نقلا بتصرف عن الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ١ ص ٦١ ط المطبعة المنيرية

جبل أبي قبيس أراد الله أن يوضع فى ركن من أركان بيته المحرم ليكون علما، أى علامة، يبدأ منها الطواف وينتهى إليها

فلما أذن إبراهيم فى الناس بالحج كان الحجر الأسود موضع بده الطواف ونهايته، وكان الطائفون يبدأون باستلامه وكأنهم يسجلون أنفسهم فى هذا السجل الخالد، ويقترن ذلك فى نفوسهم بأجل الذكريات عن النبي الكريم إبراهيم فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك، وينتقل ذلك من قبيل إلى قبيل، ومن جيل إلى جيل.

وقد فرض الله الحج على كل مسلم مستطيع وجعله الركن الخامس من أركان الإسلام، وجعل من أركان الحج الطواف ببيت الله الحرام، وجعل من شروط الطواف أن يكون الحجر الأسود نقطة البدء ونقطة النهاية فى المطاف، ومن السنن المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم تقبيله واستلامه..

بيد أن بعض المسلمين على طول الزمن وبعد العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم، قد تغير تفكيرهم فأصبحوا يغالون فى تعظيم هذا الحجر حتى لقد خيل إليهم أن الحج لا ينفع إلا بتقبيله ووضع الجباه عليه. ولقد رأيت بنفسى فريقا منهم يطوفون بالبيت حتى إذا جاءوا أمام الحجر الأسود لم يكتفوا بالإشارة إليه كما هو المطلوب عند الزحام، بل سلكوا من أجل الوصول إليه سبيلا يوقظ الفتنة ويزرى بالكرامة؛ فترى الرجل منهم يدفع نفسه نحو الحجر مزاحما بل مهاجما وكأنه فى حرب مع إخوانه الطائفين. وقد تكون معه أخته أو ذات رحمه فيدفعها بعنف وقسوة حتى يرتطم وجهها ورأسها بالحجر ثم يقول لها: حجى وكأنه يرى أن الحج لا ينفع ولا يتم إلا بهذه الطريقة.

وبمثل هذه التصرفات ينفتح المجال أمام الخرافات والأباطيل التى لا تعتمد على أساس ولا ينهض بها دليل.

أجل، لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر ويقبله أحياناً، ولكن ليس ذلك شرطا فى صحة الطواف ولا فى صحة الحج والعمرة، وإنما هو لحكمة يعلمها الله وإن خفيت علينا، وليس لنا وقد آمنا بهذا الدين عن بينة إلا أن نؤمن بهذه الجزئيات ولو لم يذكر لها تعليل..

ويعجبنى قول بعض الشعراء حينما منعه الزحام عن تقبيل الحجر أو استلامه فاكتفى بالإشارة إليه ثم أنشد:

أقول وقد زوحمت عن لثم أسود
من البيت إن تحجب فما السر يحجب
فإنك منى بالمحل الذى به
محل سواد العين أو أنت أقرب

٢ - صفحة بيضاء

فى تاريخ الحجر الأسود

مقوسا

الأستاذ محمد الطيب النجار

وضع ابراهيم (عليه السلام) الحجر الاسود فى موضعه من البيت المحرم ، ثم أتم بناءه مع ولده اسماعيل ، وأذن فى الناس بالحج .. وهذه اليد التى وضعت هذا الحجر الاسود فى مكانه وأظهرت للعالمين قدره وغرست فى قلوب المؤمنين محبته .. هى بذاتها اليد التى تسلطت من قبل على الاصنام فضربتها الضربة القاصمة ونفت ما يحيط بتقديسها من وهم وخرافة، ودعت الى نبذ الاحجار والقضاء على عبادتها

والحجر الاسود جزء من الكعبة المشرفة فهو جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع ، وحينما يقبله المؤمنون فهم يوقنون حق اليقين أنه

لايحس تقبيلهم ، وحينما يكبرون الى جواره يعتقدن أن تكبيراتهم لا تعيها كتلته ... ولكن عيون المؤمنين اذا تطلعت اليه ، فانما يكون ذلك من خلال ايمانهم ، وليست الاصنام والاوثان الا رجس من عمل الشيطان ، يصنعها السفهاء بأيديهم ومن عجب أنهم يعلمون انها لاتستطيع ان تخلق ذبابا ولو اجتمعوا له .. فهى لا تملك دفع الأذى ولا رد العبث الذى يراد بها احيانا ، ويشاهدونها حينما يغيرها كر الغداة ومر العشى ، وهى صاغرة مستسلمة وبرغم ذلك يعبدونها لأنها فى زعمهم آلهة أو هى تقربهم من الآله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقد ناقشنا فى العدد السابق ما ورد فى شأن هذا الحجر من آثار،وسنتتبع هذا الحجر اليوم فى مختلف العصور التى مرت به ، لنرى من خلال ذلك مبلغ حرص الولاة والحكام قبل الاسلام وبعده على صيانته والعناية به ، وكيف توارثوا على طول الزمن حبه وتقديره .

يذكر المؤرخون أن قبيلة جرهم قد نزلت بمكة على عهد اسماعيل عليه السلام فتزوج منهم ، وظل أمرهم يعظم وساعدهم يشتد على مر الزمن ، حتى أصبحوا ولاة البيت وحجابه ، بل صار لهم الامر والحكم كله — ويذكر المؤرخون كذلك أن سيلا

أصاب البيت على عهدهم فأعادوه على بنـــاء ابراهيم عليه السلام .

ثم اصاب الغرور جرهما وأدركها داء الأمم فبغت على الناس واستخفت بالحـــرمات فآذنتها قبيلة خزاعة بحرب وأخرجتها من مكة وكأنما عز عليهم أن يتركوا البيت الحرام كما وجدوه على عهد اسماعيل عليه السلام ، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي الى الحجر الاسود فخلعه من موضعه ، ودفنه فى بئر زمزم ، ثم ترك البيت وقد سلب منه أعز شيء فيــه ، فكان موضع الحجـــر المفقود كالعين المفقوءة يذكر النـــاس دائما بمـــا اقبلت عليه جرهم من الذنب والخطيئة .

ولــكن لم يمكث هذا الوضع الا قليلا من الزمان ، حتى علمت خزاعة بالمكان الذى دفن فيه الحجر فأخرجتـــــه وأعادته الى وضعه الذى كان عليـــــه ، ثم جاء بعد ذلك قصى بن كلاب ، فاخرج قبيلة خزاعة من مــكة ، وأصبح له ولأبنائه من بعـــده خدمة البيت من الحجابة السقاية والرفادة .. وقصى هذا هو الجد الرابع للرســـول عليه الصلاة والسلام وقد ظل أبناؤه يتوارثون خدمته حتى ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية .

ومن الثابت أن الوثنية دخلت الى مكة فى عهد قبيلة خزاعة ، وانتشرت فى جزيرة العرب حتى أصبح لها الغلبة على ســـائر الأديان فى هذه البلاد ، وكان لابد اذن أن يكون تقديس الاحجار قد أخذ طريقـــه الى الحجر الاسود ، وأن يتغير الوضـــــع القائم فى قلوب الناس نحوه ، وإصـــبح حجـــرا مقدسا تحيط به على حـــد زعمهـــم الاسرار العجيبـــة وتــكمن وراءه الفـــوائد العـــاجلة والآجلة ، فهـــو يكفـــر الذنوب ، ويفرج الكروب ، ويقضى الحوائج ، وهـــو يمتص خطايا العباد الذين يتمسحون بـــه ويتضرعون الى جواره .. الى غير ذلك من الآراء والعقائد الفاسدة التى آمن بهـــا الخزاعيون ، وأبناء قصى ، ومن اتبعـــوا سبيلهم ، ممن يقدسون الاحجـــار ويؤمنون بآثارها وأسرارها .

ولقد أصاب الــكعبة المشرفة سيل جارف قبل البعثة النبوية بخمسة أعوام فتصدعت جدرانها ، وأوهن بنيانها ، وكان لابد من هدمها . واجتمعت كلمة العرب على بنائها من جديد ، فلما وصلوا فى البناء الى مكان الحجـــر الاســـود ، ارادوا أن يضـــــعوه فى موضعه ، فنشب خلاف بينهم وتنافسوا على احراز هذا المجـــــد والشرف ، حتى كادت تنشب الحرب بينهم ، ودام هذا الشقاق والخصام أربع ليال لم يستقروا فيها على أمر . ولم يهدأ لهم بال ، فأشار عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى ، بأن يحكموا بينهم رجلا يرتضونه . فقالوا « لنكل الامر لأول داخل علينا » فكان محمداً بن عبد الله ، ففرحوا واستبشروا لما كان يعرف من صدقه واخلاصه وأمانته وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، فلما أخبروه الخبـــــر بســـط رداءه وقال : لتأخـــــذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم وضع فيــــه الحجر وامرهم برفعه حتى انتهـــــوا الى موضعه ، فأخذه ووضعه فيه .

وجاء الاســـلام بعقيدة لا غموض فيها ولا التواء ، وظهر للعقلاء من الناس ما تقـــوم عليه عبادة الاصنام من الاوهام والخرافات وأخذت تلك الهالة التى غشيت الحجـــــر الاسود تنجاب عنه شيئا فشيئا ، واصبح المسلمون من وراء نبيهم ينظرون اليه ، نظرة ابراهيم عليه السلام فلا ترى قلوبهم الا خالق الحجر ورب البيت .

ولقد تعرض الحجر الاسود لاحـــــداث كثيرة ، ولولا أن الله قدر له الحفظ والبقاء لعصفت به الكوارث ، وتبـــــدد بين ركام الحوادث ، فعندما وقعت الفتنة بين عبدالله بن الزبير وبين الامويين ، أعاد عبد الله بنـــاء الكعبة بعد تصدعها على يدى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وصب طوقا من الفضـــــة

حول الحجر ليثبته فى موضعه ، ولـــكن الفضة تزلزلت بمضى الوقت وتعلقت حــول الحجر حتى خشى الناس عليه أن يسقط من مكانه ، فلمــا ذهب الرشيد الى الحـــج أمر بالحجــارة التى بينهـــا الحجــر الاســود فنقبت بالماس من فوقها ومن تحتها ٠

ويذكر التاريخ ان عدو الله « أبا طاهر القرمطى » وفد الى مكه سنة ٣١٧ هـ ، وفعل فيها هو واصحابه أمورا منكرة ،ومنها أن بعضهم ضرب الحجر الاســـود بدبوس فكسره ثم قلعه من موضعـــه وذهب به الى بلاده فى البحرين ، وبقى موضعه خاليــا يضع فيه الناس أيديهم كما كانوا يلمسمونه فى حال وجوده ، وبذل كثـــير من الولاة والحكام المسلمين المحاولات لاسترداده ، ولم يتم ذلك الا فى ســنه ٣٣٩ هـ ، وقال القرامطــة عنــد رده : « أخــذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله » ٠ والقرامطة مـــن اصحاب المذاهب الهدامة والعقائدالفاسدة ــ ارادوا بخلع الحجر احداث فتنـــــة بين المسلمين تؤدى الى ما يريدونه لانفسهم مــن النفوذ والسلطان ، فلما وجــــدوا انهم سيكونون وقودا لهذه الفتنة أرغموا على رده الى موضعه وستروا غرضهم السيىء بقولهم هذا «اخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله»

أما من ناحية التشهيربالمسلمين عن طريق هــذا الحجر ، فانه لم يخل عصر من العصور من محاولات يقوم بهــا الملاحدة للنيــل من مبــادىء الاســـلام وتعاليمه ، ويرون فى الحجر الاسود نقطة ضعف يمكن ان يصوبوا اليها سهامهم الطائشة لينفذوا منخلالها الى اغراضهم الخبيثة !!

أجل ٠٠ انهم يقولون أن الحجر الاسود بقية من بقايا الوثنية ، وان فى وجـــوده بالبيت الحــرام وتقبيل النــاس له وتضرعهم الى جواره انما هو احياء لعبادة الاصنام ٠٠ ونقول ليأت لنــا هؤلاء بمسلم واحد يعرف مبــادىء الاسلام يؤمن بأنه ينفع أو يضر أو يشفع لمذنب أو يستجيب لداع ٠٠ فان لم يفعلوا ــ ولن يفعلوا ــ فليقفوا عند حدهم ، وليعلموا أن تعــاليم الاسلام ومبادئه قـــد استمدت قوتها من الحجة والبرهان ، وليس فيها ما ينأى عن الحكمة ، ويستعصى عـــلى الفهم ، وأن هــذا الحجــر المــاثل فى ركن الكعبة ، انما هو نقطة يبدأ منها الطواف وينتهى اليها ــ وان تقبيله واستلامه ليس تقديسا ولا عبادة ، وانما تسجيل على لبدء الطواف وانتهائه ٠

والحجر الاسود ــ بعد ذلك ــ أثر تليد ، يحمل الى الاجيال ــ عبر القرون ــ ذكرى ابراهيم واسماعيل عليهما الســــلام وهى ذكرى خالدة تعتز بها النفوس ، ويقـــوى فى ظلها الايمان ٠

